الأندلسيون أسبق من برايل
في اختراع القراءة بواسطة اللمس

للدكتور/ موسى رزق ريحان

رئيس قسم الأدب والبلاغة والنقد

بكلية الشريعة واللغة العربية بالقصيم

الأندلسيون أسبق من برايل

في أختراع طريقة القـراءة

بواسطة اللمـــس

الحمد لله الذى علم بالقلم، علم الانسان مالم يكن يعلم، والصلاة والسلام على النبي الأميّ المبعوث فينا رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهديه واستن بسنته الى يوم الدين، أما بعـــد ...

فانه يطيب لنا ان نهدى هذا البحث الموجز إلى كل العاملين في حقول العلم والمعرفة، وفي تصورى أن هذا البحث سيلقي وميضا من الضوء، وبصيصا من النور على جانب من جوانب تعليم المعوقين من البكم والعمي القراءة والكتابة بطريقة اللمس عند علماء الأندلس. وقد اخترت له العنوان الآتي :

«الأندليسيون أسبق من برايل في اختراع طريقة القراءة بواسطة اللمس»

المدرسة الأندلسية وبعض مزاياها

تميَّزت المدرسة الأندلسية بخصائص فريدة، ومزايا عديدة،، ومن بين هاتيك الخصائص والمزايا : التوفيق بين المحافظة على كل ماهو أصيل، والنزوع إلى التجديد والاجتهاد، والسعي الحثيث الى الابتكار والاختراع، وذلك في كل شأن من شئون الحياة، يتجلىً ذلك في تراثهم الفكرى الذى خلَّقوه، ومدنيتهم وحضارتهم التي لا تزال تتألَّق بريقا ولمعانا على تطاول الأعصر وترامي الأعوام.

وكان هذا مما جعل الشخصية الأندلسية شخصية متميزة المعالم، واضحة البصمات، وهذه حقيقة يدركها كل من له أدنى وليجة أو صلة بالحضارة الأندلسية . فالأندلس الاسلامي يكاد يكون هو البلد الوحيد الذى نسب اليه أدبه ومدنيته وحضارته، وليس الى دولة بعينها أو عصر بعينه. وهذا شئ له مغزاه في الدلالة على ذاتية الشعب الأندلسي.

فقد نجحت المدرسة الأندلسية في الحفاظ على شخصيتها وهويتها في سائر المجالات العلمية والعملية. فلهم خطهم الأندلسي الذى يتميزون به، ولهم مذهبهم الفقهي، ولهم نظامهم السياسي والقضائى، ونظامهم الحربي وأسلوبهم في الحياة، وطرازهم في فن البناء ، وهندسة المعمار، وغير ذلك كثير يعرفه العلماء المختصون في حقل الدراسات الألأندلسية .

المطهرة من البدع، فكانوا من أوائل من تَنَبَّه إلى خطر البدع في الدين، وفي الحياة الإسلامية، فألفوا فيها وَبَيَّنُوا خطرها، ووصلوا إلى مرتبة الأمامة في علوم الحديث. كما حافظوا على الصورة المثلى في آداء القرآن الكريم كيفية تلاوته ومن هنا كانت اصالتهم في علم القراءات والتجويد وسائر علوم القرآن العظيم .

كما أنهم نجحوا في تعريب الأندلس تعريبا كاملا أو شبه كامل في فترة زمنية متقدمة، وأثّلوا لغة الضاد فيما وراء البحار. ومؤلفاتهم في اللغة ومعاجمها الفريدة تشهد لهم بذلك ، وشروحهم لدواوين الشعر الجاهلي وغير الجاهلي تشهد لهم بذلك ، وفي مجال الحفاظ على لغة القرآن العظيم ألّفوا في لحن العامة أو لحون العوام، شأنهم في مؤلفاتهم في الحديث ومايتصل بالبدع في الدين وغير ذلك من العلوم والمعارف العربية والاسلامية والانسانية

وليس معنى ذلك أنهم وقفوا عند القديم مكبرين له لقدمه أو أنَّهم استغنوا به، ووقفوا موقف العداء من كل جديد، فعلى العكس من ذلك تماما كان الحال ، فقد ميزوا بين أصالة القدم والتحجر أو الجمود، كما أنهَّم مَيَّزوا بين متطلبات الحياة المتجددة وزُبَد الحضارات والمدنيات المتعاقبة على الدوام .

ويمكن القول بعبارة أدق وأوضح ، أنهم شقُّوا طريقهم الى الأمام في اعتدال واتزان، فلم يستعبدهم الماضي، ولم يتقوقعوا على أنفسهم، ولم يفتنهم الجديد، أو يستولي على عقولهم وقلوبهم، فيتركوا الماضي وراء ظهورهم وكأنهَّم لا يعلمون. وبذلك أفلتوا من ربقة القيود والجمود والتحجُّر، كما تحرروا من سيطرة التَّقدم وغروره، فلم تثن عزائمهم عن التقدم أصالة القدم، ولا النزوع الى الابتكار والاختراع جعلهم يثنون أعطافهم للماضي وعطائه أو يزدرونه ويتنكرون له وهذا مطلب عزيز في سير الحضارات والمدنيات... ومن هنا كانت أصالة الشعب الأندلسي ووضوح شخصيته، وبروز ذاتيته، بل وخلود تلك الشخصية في ضمير الأمة الاسلامية والعربية والعالمية على الدوام .

وحيث المقام لا يتسع للتَّطويل والتفصيل آثرت الوقوف عند جانب من جوانب الابتكار الأصيل في حقل من حقول المعرفة الانسانية العزيزة، أو قل عند وسيلة من تلك الوسائل التي تكتسب بها العلوم والفنون والمعارف، ولاسيما بالنسبة للمعوقين، وأعنى بذلك القراءة اللمسية أو القراءة بواسطة اللمس بالأصابع كما هو الحال عند المكفوفين.

غرابة لا تلبث أن تزول :

ولأول وهلة قد يبدو الأمر غريبا أو عجيبا ، وذلك عندما يقع البصر أو يتهادى الى السمع «الأندلسيون أسبق من برايل في اختراع طريقة القراءة بواسطة اللمس».

والحق أن الأمر قد يبدو غريبا حقا لأول وهلة ، وعجيبا فعلا لدى كثير من الناس ، قدر غربتنا عن الأندلس الإسلاميّ، وعزلتنا عن قيمنا الأصلية، ومثلنا العالية، ومدنيتنا الراقية، وحضارتنا الزاهية في عصورها الوضيئة، ولكن ذلك العجب والاستغراب سرعان مايزول ويصبح الأمر طريفا كل الطرافة. وماذلك الا لأن الحقيقة الخالدة لا تلبث أن تكشف عن وجهها الصبوح قناع النسيان عندما تسطع عليها شمس البحث، وتنقشع عن السماء الغيوم، ويتلاشى ضباب الجهل عن العيون.



برايل ينال اعجاب الناس كافة، وهدفنا ليس زحزحة برايل عن مكانته، وإنما غايتنا الكشف عن الحقيقة المطموسة، وتصحيح المفاهيم الخاطئة واعادة الثقة الى النفوس التي زعزعها تخلفنا وبهرها تقدم الغرب المادى :

واليوم قل من الناس من لايسمع عن برايل الفرنسي الأصل، وأقلهم من لايعجب به، ويثني عليه، وأندر من الكبريت الأحمر ـ كما يقال ـ من لايتمنى لو كان برايل من جنسه وبني وطنه، وكيف لايكون من الناس ذلك؟ وهو ذلك الرجل الضرير الذى علّم أولئك المبصرين كيف يعلمون المكفوفين من اخوانهم وبني وطنهم القراءة والكتابة؟ وكيف لايثنون عليه، وقد مكّن المكفوفين من الاتصال بما حولهم ، وبمن حولهم من الناس، بل جعل في وسع أولئك المكفوفين الذين كانوا بالأمس عالة على أهليهم وذويهم أن يشاركوا اخوانهم المبصرين في اكتساب العلوم والفنون وسائر المعارف الانسانية، كما أصبح في مقدورهم كسب عيشهم عن طريق السعي المشروع دون ما منّ أو أذى من أحد من الناس، فضلا عن خدمتهم لأنفسهم ومساهمتهم في التنميه الاجتماعية والانسانية، التي هي من اسمى الغايات لكل مدنية رائدة، وحضارة راشدة[1].

ونحن عندما نذهب الى القول بأن الأندلسيين أول من اخترع طريقة القراءة بواسطة اللمس أو أول من ابتكرها، أو بعبارة أخرى أن برايل ليس أول من اخترع تلك الطريقة أو ابتكرها لا نريد زحزحته عن عرشه كما لانريد الاطاحة بجاهه أو التقليل من شأنه. واذا قلنا إن الشرق الاسلامي كان له شرف المحاولة في هذا المضمار لا نريد الفخر ولا التغني بعطاء الماضين، وان كان يسرنا ذلك، وانما الذى نريد هو كشف اللثام عن وجه الحقيقة الصبوح الذى تراكم عليه ضباب الجهل الكثيف، وشوّه صورة ذلك الوجه الجميل غبار النسيان الأثيم . وانما نريد وضع كل شئ في مكانه الصحيح، وهذا مايفرضه الواجب ويقتضيه الحق، وبذلك يزكو العلم، وتورق أشجار الخير، وتثمر أغصان المعرفة، ويأخذ كل ذى حق حقه من الاكرام والتقدير.

محاولة في الشرق حسب أنها التجربة الرائدة :

جذبت شخصية برايل انتباه العلماء منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين للميلاد، وأخذت حمى النتائج التي حققتها مدرسة برايل في عالم المكفوفين تنتاب كثيرا من العاملين في حقول التربية والتعليم، مما حدى بوضع مايشبه تاريخا للمكفوفين وذلك على يدى بعض النفر من العلماء المهتمين بهذه الطريقة ونتائجها، وماتمخض عن تطبيقها من تحسن ملموس طرأ على أحوال كثير من المكفوفين والمعوقين.

وكان من الطبيعي أن تلتفت كل أمة ذات مدنية وحضارة الى تراثها تتملىَّ بعض جوانبه، وتستجلى بعض حقائقه، علَّها تجد في تراثها مايرضي غرورها، ويفتح الطريق أمام طموحها. وكان من بين كتب التراث التي لفتت انتباه العلماء كتاب «نَكْتُ الهميان فى نُكَت العميان» لصلاح الدين الصفدى. وكان من بين أولئك العلماء الذين اهتموا بشأن هذا الكتاب الأستاذ أحمد زكي الذى أشرف على طبعه عام ١٣٢٩ هـ الموافق ١٩١١ م.

وقد نَوَّه كثيرا بفضل ذلك المؤلف، كما نَوَّه بقيمة ذلك الكتاب على نحو ما نقرأ له »ولو لم يكن لهذا الكتاب من مزية أخرى سوى ارشادنا الى أن العرب كانوا السابقين في اختراع الكتابة البارزة الخاصة بالعميان لكفاه فضلا وفخرا وذلك ان أحد أفاضل العميان وهو برايل قد خلد اسمه، وشرَف قومه الفرنسيين باستنباط الأسلوب المنسوب اليه لتعليم العميان القراءة والكتابة، ولكن السابق في هذا الميدان هو أحد أعلام المشرق عليّ بن أحمد زين الدين أبو الحسن الجنبلي الآمدي . فهذا الشرقي العربى هو الذى يرجع له - دون سواه - الفضل كل الفضل في اختراع الكتابة الخاصة بالعميان .

أما تلك المحاولة فتتلخص في أن الآمدى الكفيف كان يعرف جميع أثمان كتبه التي اقتناها بالشراء ، وذلك أنه كان اذا اشترى كتابا بشيء معلوم اخذ قطعة ورق خفيفة،

وفتل منها فتيلة لطيفة، ووضعها حرفا أو أكثر من حروف الهجاء لعدد ثمن الكتاب بحساب الجمّل، ثم يلصق ذلك على طرف جلد الكتاب من داخل، ويلصق فوقه ورقة بقدره لتتأيد، فاذا شدّ عنه أو عن ذهنه ثمن كتاب ما من كتبه مسّ الموضع الذى علّمه في ذلك الكتاب بيده فيعرف ثمنه من تثبيت العدد الملصق فيه[1].

ولهذه الرواية في نظر أستاذى الدكتور عبدالحميد يونس مغزيان كبيران :

أولهما : أن الكفيف كان يجتهد في اصطناع الوسائل المادية التي تعينه على العلم والعمل جميعا. وما نظن أنها فريدة بين سير المكفوفين في العالم العربي الاسلامي. والراجح عندنا أن المداد الذى يخلط بما يجعله بارزا قد استعمل كثيرا في ذلك العهد، اذ ليس من المعقول أن تتوسل الأجيال الماضية من المكفوفين من تلقاء نفسها هذه الوسيلة دون أن تكون امتدادا طويل العمل لتقليد قديم.

وثانيهما : هو اعتماد الكفيف المشتغل بعمل معقد على التنظيم الدقيق ، فان ماتوسل به الآمدى ليدل على انه اصطنع منهجا محكما في تصنيف كتبه .

وهذا المنهج هو الذى أعانه على أن يجد أى كتاب يطلب منه لفوره على كثرة ماعنده من الكتب. وهي الوسيلة التي يصطنعها الغرب اليوم في تدريب المكفوفين، وبخاصة في تنظيم مكتباتهم الخاصة أو العامة .

أما وسيلة الآمدى في استرجاع أثمان كتبه بحروف على حساب الجمّل فانه يعني التوسل بالكتابة الخيطية قبل تسجيلها في تاريخ المكفوفين بقرون.[2] فلم يستطع المكفوفون في الغرب قبل القرن الثاني عشر القراءة والكتابة والاتصال بالعالم على نطاق واسع، بل انهم لم يصلوا الى المشاركة الفعالة في النشاط العام قبل القرن العشرين.

---

(١) اشبل روسى / رحلة فى عالم النور ترجمة د / حسين مؤنس ص ٦٣ .

(٢) اشبل روسى ـ رحلة فى عالم النور ص ٦٤ .

بينما كان العلماء في مجلس بحث ونظر يتناظرون ، ويتحاورون في الأمر الممكن وغير الممكن وغير الممكن في نطاق البيان ومجال الاقناع، فاذا بالامام ابن حزم يضرب مثالين أحدهما لأمر غير ممكن في نظره وواقعه، كما لو طلب الكفيف من المبصر تصوير الألوان له كي يعلقها ويدركها .

وأما المثال الثاني فهو للأمر الممكن الذى عدّه من قبيل الواجب، ويعني ابن حزم بذلك الأمر الممكن تعاليم المعوقين كالعمي والصم والبكم، ونحو ذلك من ذوى العاهات، وابن حزم لايقصد مجرد الا مكان من الناحية النظرية الصرفة وانما يعني التطبيق الواقعي والعملي لذلك الأمر الممكن. وفي ذلك المجال يقول في بعض كتبه مانصه :

وأمّا مادام ذلك ممكنا فواجب على المكلف بيانه بأقصى مايقدر عليه. ولقد أخبرني مؤدبي : أحمد بن محمد بن عبدالوارث رحمه الله أن أباه صوّر لمولود كان له أعمى، ولد أكمه، حروف الهجاء أجراما من قير ثم ألمسه اياها حتى وقف على صورها بعقله وحسه، ثم ألمسه تراكيبها، وقيام الأشياء منها، حتى تشكل الخط، وكيف يستبان الكتاب، ويقرأ في نفسه، ورفع بذلك غصّة عظيمة[٣].

فنحن أمام تجربة بكر في هذا الميدان ، وهي تجربة فذّة وفريدة من نوعها، فضلا عن كونها تجربة واقعية ومتكاملة. وهذه التجربة كما هو واضح منها تربط بين عالم الحس وعالم العقل، كما أنها تشير بوضوح الى دور الحواس في التماس المعرفة، ودورها في توصيل الأشياء المحسّة الى العقل، ودور العقل في استقبال ذلك الشئ المحس، وادراكه على الصفة التي هو عليها، وهذا الأمر في حد ذاته يعد تطورا في عالم الدراسات النفسية

(٣) أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم : التقريب أحدّ المنطق والمدخل اليه ص ١٩٢ .

والعقلية وهو على جانب عظيم من الأهمية، كما تشير تلك التجربة الى الاستفادة من وسائل الايضاح التي تقدمها البيئة . واستخدام مثل تلك الوسائل في التربية ذو مغزى حضارى كبير. فتصوير حروف الهجاء من القير أو القار على هيئة حروف بارزة وسيلة من وسائل الايضاح المهمة، وهي الطريقة المتبعة اليوم في تعليم الأولاد الصغار المبتدئين رسم الحروف وتشكيل الكائنات الحيّة وغير الحية من الطينة اللينة، والمواد المماثلة لها القابلة للتشكيل. وتصوير الحروف الهجائية وجعلها بارزة من مواد قابلة للطرق والتشكيل كما لو كانت صلبة الى حد ماكان مقدمة الاختراع آلة الطباعة التي نقلت الانسانية تلك النقلة الحضارية الرائعة، والحروف البارزة من أخص خصائص أحرف الطباعة المعروفة حتى اليوم .

وشيء مهم آخر يعطي هذه التجربة أبعادا تربوية ، هو اعتماد ذلك المؤدب العبقرى على التدرج في العملية التعليمية والتربوية في إطار شامل ومتكامل مما يوحي بأن تلك الفكرة كانت ناضجة في ذهن ذلك المؤدب . فالواضح من سياق النص أنه كان ينفذ خطته أو منهجه على مراحل متعاقبة تبدأ بتصوير الحروف الهجائية حرفا حرفا، ثم جعل الطفل يلمس ذلك الحرف باحدى اصابعه حتى يدركه بعقله وحسه، وبعد المران على ذلك الحرف ينتقل الى حرف آخر ، وهكذا حتى بقية الحروف، ومن ثم يشرع في تكوين الكلمات من تلك الحروف ، ثم الجمل، والفقرات حتى استقامة الخط والكتاب وحتى يستطيع الكفيف والأكمة أن يقرأ فى نفسه ما أعدّ له. وهذا معناه نجاح التجربة نجاحا تاما ويدل على ذلك قول ابن حزم «ورفع بذلك عنه غصة عظيمة فهذه العبارة توحي بالنجاح كما توحي بالفرح والسرور لدى كل من المربي والطالب المتعلم.

ونحن أذا أردنا أن نحدد زمن التجربة الأندلسية لنقطع بسبقها ونصحح المفاهيم التي جزم بها كل من الأستاذ/ أحمد زكي والدكتور/عبدالحميد يونس، أعني تجربة الآمدى السابقة الذكر، فانه لابد من الرجوع الى حياة الأشخاص الذين تنسب اليهم هاتان التجربتان ، التجربة المشرقية التي قام بها الآمدى، والتجربة الأندلسية التي نحن بصددها، أو الرجوع الى الذين رووا بعض هاتين التجربتين .

فابن حزم الذى روى لنا خبر التجربة الأندلسية عن مؤدبه عاش مابين ٣٨٤ - ٤٥٦ هـ. ةاما مؤدبه : أحمد بن محمد عبدالوارث فقد توفي في حوالي الستين وأربعمائة للهجرة، كما يذكر السيوطي في كتابه بغية الوعاة نقلا عن ابن الزبير الأندلسي.

وان صح خبر هذا الوفاة في الزمن المذكور يكون أحمد بن عبدالوارث قد توفي في العقد الذى توفي فيه ابن حزم وهذا معناه أن ابن حزم قد أخذ عن شيخه المذكور، وهو في مثل سنه، وهذا قد لايتفق ومراحل تعليم ابن حزم، وربما كان الصواب في حوالي سنة عشر وأربعمائة أو سنة عشرين وأربعمائة للهجرة، لأن ابن حزم المولود في سنة ٣٨٤ هـ قد قطع مرحلة الطلب في فترة مبكرة ، وربما كان ذلك في نحو السادسة عشرة من عمره أو في حدود العشرين، وهي فترة معقولة للأخذ عن ابن عبدالوارث ، ولأن عبارة السيوطي أن ابن عبدالوارث توفي في عشر الستين وأربعمائة(٤) أى أنه توفي بعد الخمسين والأربعمائة أى قريبا من وفاة ابن حزم .

وعلى أى وضع كان الأمر بالنسبة للوفاة فان زمن التجربة الأندلسية يرجع إلى الوراء حتى حياة محمد بن عبدالوارث والد احمد بن محمد بن عبدالوارث. ومحمد بن عبدالوارث هو صاحب التجربة لاشك أنه أسنّ من ابن حزم الذى أخذ العلم عن ولده أحمد بن محمد ومعنى هذا أن زمن التجربة قد يرجع بالتأكد أو على وجه التقريب الى القرن الرابع الهجرى ، وربما كان ذلك في خلافة الحكم المستنصر ابن عبدالرحمن الناصر المتوفي في سنة ٣٦٥ للهجرة، فقد كان ذلك الخليفة خير راع للعلم والعلماء، وعهده مشهور بنوابغ العلماء والأدباء .

واذا عدنا الى حياة الآمدى صاحب التجربة المشرقية وجدنا أنه كان حيا في حدود سنة ٦٩٥ للهجرة. واذا افترضنا أن التجربة الأندلسية قد تمت في حدود الأربعمائة للهجرة وأن التجربة المشرقية قد تمت في الربع الأخير من القرن السابع الهجرى تكون التجربة

---

(٤) عبدالرحمن السيوطى : بغية الوعاة جـ ١ ص ٣٧٣

الأندلسية أسبق من أختها المشرقية بحوالي ثلاثة قرون أو أقل من ذلك او أكثر قليلا، فكيف لو تمت التجربة الأندلسية في حوالي منتصف القرن الرابع الهجري. وبهذا تكون التجربة الأندلسية هي التجربة الرائدة فى هذا الميدان على مابين التجربتين من تباين في الأساليب والدقة والكمال ومجال التطبيق والنتائج وما الى ذلك.

نتائج مثمرة للتجربة الاندلسية :

والظاهر أن التجربة الأندلسية لم تكن هي التجربة الأولى والأخيرة في ربوع الاندلس ، فلدينا دليل على أن تلك الطريقة قد استعملت خلال القرن السابع الهجرى مما يوحي باستمرارها ونموها وصلاحها للتطبيق. وتراجم علماء القرن السابع للهجرة تقدم لنا ذلك الدليل ، ففي ترجمة أحمد بن محمد بن ثعلبة العبدرى الاشبيلي مايقطع بذلك مما لايدع مجالا للشك في نجاح التجربة الأندلسية . فقد روى نصا أن العبدرى كان يقرأ باللمس(٥). وهذا يدل علـى أن إسم تلك الطريقة قد أصبح شائعـا ومشهـورا لدى الأوساط العلمية ... والعبدرى هذا يذكر أنه كان نحويا حاذقا وأديبا وكاتبا محسنا، وأنه كان نبيل المشارع مستطرف الأحوال . وهو تلميـذ أبي الحسن الرعيني المتوفى سنة ٦٦٦ للهجرة، وتلميذ أبي علي الشّلوبين المتوفى سنة ٦٥٤ للهجرة، وأبوعلى هذا مؤدب مشهور أقرأ نحو ستين سنة ، وبرع من طلبته جلّة، وقلما تأدب بالأندلس أحد من أهل زمانه الا وقرأ عليه .

واذا تذكرنا أن أحمد بن محمد بن عبدالوارث كان مؤدبا وأن والده محمد بن عبدالوارث كان هو الآخر مؤدبا أيضا، وأشياخ العبدرى الذى كان يقرأ باللمس كانوا من كبـار المؤدبين، كما مرّ بنا، أدركنا أن القراءة باللمس عاشت في وسط علمي مكن لها من البقاء والاستمرار وربما التطوير، وان جهلنا ذلك أما لعدم التدوين واما لعدم عثورنا على المصادر الخاصة بذلك التطوير ، فلولا المحاورة أو المناظرة التي أشار اليها ابن حزم في

(٥) أبوعبدالله محمد المراكشى ـ الذيل والتكملة ـ السفر الأول ـ القسم الأول ص ٣٦٥ . وانظربغية الوعاة السيوطى جـ ١ ص ٣٧٥ .

كتابه «التقريب لحد المنطق» لما عرفنا شيئا عن طريقة محمد بن عبدالوارث المذكورة أنفا . وهذا يوحي بأن التجربة الأندلسية لم تكن تجربة عابرة أو أنها تمت عن طريق الصدفة أو أنها مضت دون رجوع .

وظاهرة القراءة باللمس يرويها لنا أبوالحسن الرعيني شيخ العبدرى في سياق يوحي بأن العبدرى كان في مجلس من مجالس العلم والأدب وأنه كان يقرأ بتلك الطريقة أمام الحضور . فالرعيني يذكر أنه كان قد حضر مع العبدرى يوما بقرطبه في مجلس أبي العلاء ابن المنصور الملقب بعد ذلك بالمأمون، وهو حينئذ والي قرطبة والظاهر أنه كان يقرأ في ذلك المجلس العلمي بطريقة اللمس المذكورة[٦]. وهذا يدل كما ذكرت على بقاء تلك الطريقة وشيوعها في الأوساط العلمية وانتشارها بين المؤدبين والمتأدبين المكفوفين في الأندلس .

محاولات أوروبية بعد التجربة الأندلسية والمشرقية في البلاد المجاورة للأندلس والقريبة منها :

جرت محاولات في أوروبا لتمكين المكفوفين من تعلم القراءة والكتابة، وبذلت جهود مشكورة في هذا السبيل، والتمست وسائل أولية مثل الحروف الخشبية المحفورة، والكتابة بالأسلاك والدبابيس، وربط الحروف الخشبية بالأسلاك المعدنية ونحو ذلك. غير أن هذه المحاولات جاءت متأخرة عن التجارب الاسلامية في كل من الأندلس والمشرق لعدة قرون، وربما كان تقليدا لتجارب المسلمين السابقة ، اذ كل هذه المحاولات أو معظمها على الأقل قد تم اما في البلاد المجاورة للأندلس مباشرة أو القريبة منها، أى في مجال التأثير الحضارى والثقافي للأندلس مثل: فرنسا وايطاليا وسويسرا.... الخ وأمر آخر نلاحظه على هذه المحاولات هو أنه قام بها نفر من العلماء العاملين في حقول التربية والعلوم الثقافة، وأن بعضهم كان على صلة بالمخطوطات القديمة مما يرجح جانب التأثير. هذا فضلا عن التشابه في الوسائل المستخدمة في تلك المحاولات .

(٦) أبوعبدالله محمد المراكشي ـ الذيل والتكملة ـ السفر الأول ـ القسم الأول ص ٣٦٥

ومن تلك المحاولات ، المحاولة التي قام بها البروفسور جاك برنولي الذى كان يعمل أستاذا بجامعة بال ... فقد تولى تعليم الفتاة اليزابث فالدكير سن المولودة في جنيف سنة ١٦٦٠م، والتى فقدت بصرها في عامها الأول فقد أعد لها لوحة خاصة حفر بها جميع الحروف الأبجدية - وجعل الفتاة تتبع بأصابعها شكل كل حرف[٧] .

ويروى أن قسّا ايطاليا يدعى فرانسسكو لانا كتب عن حروف هجاء تتألف من زوايا ونقط وذلك في كتاب نشر عام ١٦٧٠ م...[٨] ولعل القس يعني محاولة رامبستوا الايطالي الذى يقال أنه قد توصل الى ابتكار طريقة الحروف الخشبية المحفورة فيما بين ١٥٧٥ ، ١٥٨٠ م.

وفي فرنسا نشر ديدورو الفيلسوف الفرنسي (١٧١٣ ـ ١٧٨٤ م) رسالة عن المكفوفين ـ جاء بها أن فتاة فرنسية كفيفة تدعي مادموازيل ميلاز دى سالينياك قد تعلمت القراءة بواسطة حروف محفورة في لوحة خشبية.[٩]

وكتاب ديدرو أو رسالته عن المكفوفين تذكرنا بذلك السفر الجليل الذى وضعه أبوالقاسم الطبيب القرطبي طبيب الحكم المستنصربالله المتوفي سنة ٣٦٥، فقد وضع كتابا عن المكفوفين سماّه التعريف ... ولا نستبعد أن يكون ديدرو قد وصل الى سمعه خبر ذلك الكتاب[١٠] .

وربما كانت أقرب المحاولات الأوروبية توفيقا، وامتنها صلة بالتجربة الأندلسية محاولات فالنتين هاوى الذى يعد في أوروبة علامة بارزة في تاريخ تعليم المكفوفين، ويقال انه وبطريق الصدفة وجد الطريق عبر الأصابع الحساسة الى تعليم المكفوفين. ويقال انه استخدم في أول الأمر الحروف الهجائية المحفورة على ألواح خشبية وذلك في اثناء تعليمه لغلام كفيف من المتسولين في شوارع باريس، كما يقال أنّ فتاة ليسبر

(٧) رحلة فى عالم النور ص ١٠٧

(٨) رحلة فى عالم النور ص ١٦٠ .

(٩) رحلة فى عالم النور ص ١٠٥ .

(١٠) رحلة فى عالم النور ص ٤٤ .

الكفيف هداه إلى طريقة الحروف البارزة ، وتقول الرواية الفرنسية ، انّ ليسبر كان يفرز بعض الأوراق الموضوعة على مكتب هاوى فعثرت أصابعه على بطاقة دعوة مقلوبة فأخذ يتحسس الحروف من الخلف حيث كان الطبع عميقا فبرز من الخلف البطاقة، ويقال أنه استطاع أن يميز الحرف «٥» وأنه أخبر أستاذه هاوى الذى أخذ يخط حروفا بارزة على ورق مقوى وهو يضغط عليها أى يضغط على الكتابة، ودرّب ليسبر عليها فأتقنها ... ويقال أن هاويا وضع كتابا بالحروف البارزة في سنة ١٧٨٦ م، وأنه افتتح مدرسة لتعليم الكفوفين ... الخ(١١).

ولا شك في وجوه الشبه القريبة بين هذه الطريقة والطرق الإسلامية التي أشرنا اليها من قبل عند أهل الأندلس وعند أهل المشرق، ولا ننسى أن نذكر أن الأوروبيين درجوا على أخذ الأفكار والنظريات من المسلمين ونسبتها الى أنفسهم، وتفننهم في خلق الروايات الخادعة نحو المصادفات وما الى ذلك مما لا يخفى على العلماء .

هل اطّلع فالنتين هاوى على المخطوطات الأندلسية الخاصة بتعليم الكفوفين؟.

واذا خلصنا الى نتيجة مفادها أن التجربة الأندلسية هي التجربة الرائدة ـ وهي التجربة الأكمل والأوفى بالغرض التربوى ـ وأنها الأكثر أصالة، اذ تعليم الكفيف الأكمة أعسر من تعليم الكفيف غير الأكمة، واذا خلصنا الى وجه التشابه بين المحاولات الأوروبية والاسلامية ، فهل نخلص الى أن فالنتين هاوى قد اطلع على المخطوطات الاسلامية المترجمة أو المنقولة الى لغته؟ أما هذا الأمر فليكن احتمالا مقبولا أو راجحا ، أما اطلاع هاوى على المخطوطات القديمة فهو شيء يعترف به هاوى نفسه، فهاوى يذكر أنه عندما قام بزيارة لباريس كان قد قابل الفتاة الفرنسيه ماريا التي أطلعته على عيّنات من كتاباتها بطريقة الدبوس، وأنه بعد ذلك أخبرها بدوره عن الاستكشافات التي توصل اليها عن طريق دراسته للكتب القديمة والمخطوطات القديمة ....(١٢) فاذا علمنا أن

(١١) رحلة فى عالم النور ص ١٢٤ ـ ص ١٢٧ باختصار وتصرف .

(١٢) رحلة فى عالم النور ص ١١٧

مثل هذه المخطوطات التي تتناول أمور المكفوفين وطرائق تعليمهم هي على وجه العموم مؤلفات عربية وأن معظمها موجود في مكتباتهم أدركنا أن فالنتين هاوى قد انتفع على الأقل بهذه المؤلفات أو أخذ عنها الشيء النافع والمفيد ـ ومهما يكن الأمر فأن كلام هاوى لايدل على وجود أى أثر للصدفة في أبحاثه .

بين باربيير وبرايل :

تقوم شهرة برايل في واقع الحال على الاستكشاف القائل بأن أصابع الكفيف هي أفضل مايفهم النقط[١٣] مع أن برايل لم يدّع في يوم من أيام حياته أنه وحده هو صاحب ذلك الاستكشاف أو أنه هو وحده مبتكر تلك الطريق.[١٤].

ويذهب علماء الغرب الى القول بأن المستكشف الحقيقي لتلك الطريقة هو تشارل باربيير المهندس والضابط في سلاح الاشارة النابليوني. وقد أطلق برايل على طريقته التى سنذكرها الكتابة الليلية، وهي نوع من الشفرة ـ وعي عبارة عن مجموعة من النقط البارزة ، وكل حرف من الحروف يتكون من اثنتي عشرة نقطة [١٥].

ومعنى ذلك أن باربير عدل عن نظام الحروف المحفورة على الألواح ـ والحروف البارزة ـ واستخدام نظام النقط وان لم يكن يفكر أصلا في تعليم المكفوفين، وانما كان هدفه خدمة الأغراض الحربية ، وتأمين سرية الاتصال في أى وقت من أوقات الليل والنهار من غير حاجة إلى الانارة .

ويبدو أن برايل تلقف تلك الطريقة وحدد عيوبها منذ البداية وعمل على ادخال بعض التحسينات عليها ...

(١٣) المرجع السابق ص ١٥٩ .

(١٤) المرجع السابق ص ١٥٨، ١٦٢ .

(١٥) رحلة فى عالم النور ص ١٥٨ .

فقد وجد برايل مثلا أن طريقة باربيير طريقة معقدة اذ هي تحتاج إلى استعمال شفرة خاصة لفك رموزها ـ وهذه الشفرة المعقدة لا تناسب المكفوفين، كما أنها تتبع المنهج الصوتي ـ وليس المنهج الكتابي، مما جعل برايل يفكر مليّا في تذليل تلك الصعوبات وكان مما أدخله على طريقة باربيير من تعديلات هو اختصار عدد نقط الحرف الواحد من اثنتي عشرة نقطة الى ست نقط ـ أى أنه أختصر طريقة باربيير الى النصف، وعدل في نظام الشفرة الى عدد من النقط لكل حرف من حروف الهجاء[١٦].

وقد أطلق على تلك الطريقة طريقة برايل الذي مات في سنة ١٨٥٢ م ...

وهكذا نرى كيف سبق المسلمون في الاندلس وفي المشرق الى اختراع القراءة بواسطة اللمس، وذلك قبل الغرب بحوالي ثمانية قرون على الأقل .

وهكذا نرى أيضا كيف كانت حضارتنا الاسلامية سبّاقة الى خير الانسانية ـ ونفّاعة لبني البشر ـ ومعطاءة بلا حدود ودون ما من أو أذى .

كما نرى كيف مضى التقدم في هذا المجال بطيئا متثاقلا في الغرب كلّه، اذ لم يدرك الغرب ما سبق أن أدركه المسلمون في القرن الرابع الهجرى أى التاسع والعاشر للميلاد ألاّ في القرن التاسع عشر أوائل القرن العشرين . مما يبين مدى الخسارة التى ألمّت بالعالم كلّه والانسانية كلها من جرّاء تخلف المسلمين . وتوقفهم على السّعي والتطور . وما بحضارتنا من عجز أو قصور عن مواصلة سعيها وما سبّبناه لأنفسنا من عزلة ثقافية عن ماضي حضارتنا الزاهر، وثقافتنا الراشدة .

وهذه بعض اشعاعات حضارتنا المثالية التي اهدتها قرطبة الاسلامية التي كانت في يوم من الأيام دار العلم أو دار العلوم

أوهي كما يقول الشاعر الأندلسّي : ابن عطيّة :

---

(١٦) رحلة فى عالم النور ص ١٦٠ ـ ص ١٦١ .

بأربع فاقت الأمصـــار قرطبـــــــة وهنّ قنطرة الوادى وجامعهـــــــا
هاتان ثنتان والزهراء ثالثـــــــة .. والعلم أكبر شيء وهو رابعهـــــا

ونحو ذلك قول الأ :

دع عنك حضرة بغداد وبهجتهـــــا .. ولا تعظّم بلاد الفرس والصّيـــــــن
فما على الأرض قطرُ مثل قرطبـــــة .. ومامشى فوقها مثل ابن حمديــــــن

وهذا هو بعض عطاء سلفنا الصالح الذين كانوا كما قال الشاعر فيهم :

أقصر فإني أدرى بالذى محـــــت .. لأفقه طهمتي واسأل عن الأثـــــر
واسمع لقول الذى تتلى محاسنـــــه .. من بعد ماصار مثل الترب كالسّـــور
جمال ذى الأرض كانوا في الحياة وهـم .. بعد المهات جمال الكتب والسّيـــر.

محتويات البحث

* المدرسة الأندلسية وبعض مزاياها .
* الأندلسيون أسبق من برايل في أختراع طريقة القراءة بواسطة اللمس.
* غرابة لا تلبث أن تزول .

* هدفنا الكشف عن الحقيقة، وليس زحزحة برايل عن مكانته العلمية .
* محاولة مشرقية خيّل أنها الرائدة، ومغزى هذه المحاولة.
* التجربة الأندلسية الرائدة، وتطبيقاتها الناجحة.
* نتائج مثمرة للتجربة الأندلسية.
* محاولات أوروبية بعد التجربة الأندلسية والمشرقية في البلاد المجاورة للأندلس.
* فالنتين هاوى والاطلاع على المخطوطات القديمة .
* موازنة بين طريقة باربيير وبرايل.
* حضارتنا الإسلامية هي السّباقة الى الخير دوما وأبدا.
* وداعا قرطبة الإسلام والسّلام .